طنجة : جوهرة البوغاز

محمد القاضي *

الاسم والدلالة

طنجة إحدى مدن المغرب التاريخية ذات الجذور الحضارية العريقة، والتي تنفرد بموقع استراتيجي متميز، تقع على ربوة عالية في رأس بوغاز جبل طارق بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط في مقابلة الشاطئ الإسباني، بحيث لا يفصلها عنه سوى خمسة عشر كيلومتراً (15). وتمثل بهذا الموقع بوابة إفريقيا والمغرب إلى العالم الخارجي عبر المضيق والبحر الأبيض المتوسط وعبر المحيط إلى العالم الجديد. وإلى جنوبها تمتد مقدمة سلسلة جبال الريف، والتي تبدو للرائي سواء من الشمال ما بين طنجة والحسيمة أو من الجنوب على طول ممر تازة ككتلة قوية من أراضٍ مرتفعة.

واسم طنجة أثار الخيال المبدع ونسجت حولها الكثير من الخرافات والأساطير. ويستعرض أبراهام لا ريدو في البحث الذي صدر في ذكراه عام 1969م تحت عنوان "طنجة من الأسطورة إلى التاريخ" مختصر ما ورد عن هذه الحضارة في آداب الإغريق واللاتينيين فيذكر أن بعض هذه النصوص ربطت تأسيسها بقصة الطوفان وما وقع بعد هذا الحدث مباشرة من صراع بين العملاق أطلس رمز القوة البحرية عند الأيجيين وبين العملاق "أنطي". وأن طنجة حسب ما ذكره "بوفينيوس ميلا" في القرن الأول للميلاد اسم أرملة "أنطي" الذي لقي مصرعه على يد أطلس، ويقال بانيها تذكاراً لأمه هو "سوفاك" ولدها من العملاق الذي قتل زوجها أنطي.

وهناك خيط أسطوري آخر يربط تأسيس طنجة وتسميتها بقيام هرقل بشق المضيق بعد أن تشكى الأفارقة من هجومات جيرانهم الشماليين.

ولعل أهم ما يمكن الاهتداء به هما صيغتان وردتا في نقود الفينيقيين الذين وصلوا إلى طنجة قبل أن يعرفها الإغريق أو اللاتينيون حيث نجد صيغتين هما: تنكا TINGA وتتكا TITGA. فالاسم إذن أصلي محلي من لغة أهل البلد وجده الفينيقيون فكتبوه كما هو أو كتبوه بشيء قليل من التحريف ليتماشى مع التفنيق ثم جاء العرب فكتبوه بشيء من التصحيف ليتماشى مع التعريب.

أما الصيغة الواردة غالبا في النصوص اللاتينية فهي: TINGIS وهو نفسها الواردة عند الفينيقيين بزيادة حرف السين التي تكررت زيادتها في أواخر أسماء عدد من المدن في شبه جزيرة إيبيريا أو في شمال إفريقيا، كما وردت في أوصاف الجغرافيين وغيرهم من كتاب العهد الروماني. ويوسع بعض المؤرخين من حدود طنجة ليجعلوها تعني في العصر الإسلامي الوسيط الإمارة الفسيحة التي تمتد مسيرة شهر.

طنجة قبل الفتح الإسلامي

يرجع تاريخ طنجة إلى عصور ما قبل التاريخ فهي مدينة أزلية على حد تعبير ابن حوقل؛ تاريخها عصي على التحديد والضبط. تعتبر أقدم مدينة مغربية، بل هي حسب ما ورد عند ابن الجزار في كتابه: "عجائب الدنيا" أقدم مدينة في البنيان على الإطلاق بعد مكة المكرمة. ويقول "ميلا": ينبغي أن نعود إلى عهد الأساطير لكي نعرف أصل تأسيس طنجة، وهذا العهد بعيد جدا في القدم.

هذا وإن المدينة الجديدة غطت المدينة القديمة وأتلفتها بصفة نهائية بحيث أصبحت مجهولة ولا تميز إلا ببعض معالمها. فقد كانت موجودة قبل الفينيقيين على شكل مجموعة سكنية، ولكن الثابت أن هؤلاء القوم في بحثهم عن أرض الغروب، كانوا أول من زار هذا الإقليم حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، ليؤسسوا به أهم مراكزهم التجارية. وقد خلفوا وراءهم آثاراً شاهدة للتاريخ كبعض النقوش التي وجدت في عمودين فينيقيين بطنجة القديمة المعروفة اليوم "بطنجة البالية".

ولما حل الفينيقيون بطنجة جعلوا مرساها من أعظم مراسيهم فترسوا بها سفنهم لتربط حركة التجارة البحرية فيما بين الشرق والغرب وكانت المدينة آنذاك تشكل أكبر مركز من مراكز الاتصالات تربط بين القواعد الفينيقية للبحر المتوسطي وبين كثير من المحطات البونية القائمة على طول الساحل الأطلسي الإفريقي. وقد خلف الفينيقيون بمدينة طنجة وضواحيها آثاراً أركيولوجية منها: مقبرة بونية برأس هضبة مرشان ومقبرة منحوتة في الصخور بناحية الهضبة المعروفة بالحافة والمطلة على البحر قبالة الشاطئ الإسباني، وأسسوا مدينة بجهة مغاور هرقل جنوب رأس اسبارطيل اكتشفها علماء الآثار منذ عهد قريب. ويلاحظ في هذه الأثرية أطلال لمعصرة الزيت ولمركز مهم لصيد الأسماك وتمليحها. وبالإضافة إلى هذا كله نقب علماء الآثار في مغاور أشقار وغيرها فأماطوا النقاب عن أوان وصوان وكلاليب صيد الأسماك. وفي مغاور هرقل عثروا على حفر رمسية فوجدوها مليئة بخليط من عظام تنتسب إلى شتى الأجناس.

وحل بالمدينة بعد الفينيقيين القرطاجيون في رحلة استكشافية من أجل توسيع تجارتهم ونشر حضارتهم وقد كان رائد هذه الرحلة الشهيرة القائد القرطاجي **حانون** الذي عبر أسطوله مضيق جبل طارق المعروف آنذاك بأعمدة هرقل والمكون من ستين(60) مركبا شراعيا مشحونا بثلاثين ألف مهاجر وذلك سنة 470 ق. م. ومنذ سقوط قرطاجة عام 146 ق.م. والرومان يتسربون إلى إفريقيا الشمالية شيئا فشيئا حتى احتلوا القطر الموريطاني زهاء خمسمائة عام(500 عام). وطيلة هذه الحقبة ظلت طنجة ميناءً رئيسيا لموريطانيا الطنجية بل أكبر مدينة مغربية إلا أن الآثار المتبقاة من هذا العهد قليلة وقد شاهد البكري في القرن الحادي عشر الميلادي عددا كبيرا منها.

وقد عثر على قناة كانت تمتد من مصب وادي اليهود إلى المدينة حيث يستغل ماء هذا النهر لحاجيات السكان، كما عثر على فسيفساء في الكنيسة الإسبانية وتمثل الشاعر أورفي ORHEE وهو يغني بالناي وسط مجموعة من الحيوانات. ومن أهم الآثار المكتشفة فيما بين 1908-1909م مجموعة من القبور التي تعلوها صور نباتية ومناظر مختلفة بينها منظر جندي بين حصانين ويحمل في يده اليمنى سوطا وفي ساعده الأيسر

ترسا، وقد اكتشفت إحدى البعثات العلمية بعض النقوش الرومانية التي ترجع إلى عهود مختلفة وحماما عموميا في(عين الحمام) وكهف يدعى كهف الأصنام جنوب رأس أسبارطيل.

كان على المدينة بعد ذلك أن تصمد للوندانيين بعد الرومان، وللبيزنطيين بعد الوندال، وبذلك كانت معرضة لأن تغزوها الجيوش من الشمال في كل العصور تقريبا، وتعايشت مع مختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب بل عرفت انسجاما معها، وقد تركت كل فترة طابعها على المدينة.

طنجة بعد الفتح الإسلامي

بدأ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا سنة 25هـ على يد عبد الله بن أبي السرح العامري والي مصر في عهد عثمان. واستمر في عهد معاوية الذي أرسل إلى إفريقيا معاوية بن خديج سنة 45هـ، وعقبة بن نافع سنة 50هـ، ثم تبعه أبو المهاجر دينار ابتداء من سنة 55هـ، فعقبة مرة أخرى ابتداء من سنة 61هـ، فزهير بن قيس البلوي سنة 64هـ فحسان بن النعمان سنة 69هـ ولم يستقر الفتح بالمغرب إلا مع مجيء موسى بن نصير بين سنتي 87 و89هـ. ففتح طنجة وولى عليها عام 92هـ طارق بن زياد الذي انطلق منها لفتح الأندلس، وأصبحت بذلك مع شقيقتها سبتة مركزا رئيسيا للاتصالات البرية والبحرية بالمغرب وشكلت، إن صح التعبير، معبرا لنقل ثقافة الشرق إلى الغرب، ودرعا لصد الجيوش التي كانت تريد أن تعبر أوربا إلى إفريقيا دون جدوى.

وفي سنة 172هـ تأسست الدولة الإدريسية بالمغرب، وكان ذلك إيذانا بانفصال المغرب عن الخلافة العباسية، وميلاد شعب متميز في المجموعة الكبرى من الشعوب التي تكون الدولة الإسلامية. وبعد أن حكمت المغرب السلالة الإدريسية والحمودية ما شاء الله اقتعد عرش المغرب المرابطون الذين استولوا على طنجة عام 470هـ، وازدهرت في عهدهم، فأصبحت مركزا حربيا، ومنها انطلقت فيالق جيوش السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين لينقذ الأندلس من الضياع، فقد كانت الانتكاسة التي حلت بها بعد انقراض دولة الأمويين وقيام ملوك الطوائف تؤذن بانحسار المد الإسلامي في هذه البلاد لو لم يتسارع البطل المغربي لإنقاذها. وفضله في استرجاع الأندلس إلى حظيرة العروبة والإسلام بعد أن أشرفت على الضياع لا يعادله إلا فضل فاتحها الأول طارق بن زياد كما يقول المرحوم العلامة عبد الله كنون.

وبعد زوال ملك المرابطين تعاقب على عرش المغرب الموحدون فأصبحت طنجة في عهدهم قاعدة لنشاط اقتصادي بالميناء، ومركزا تجاريا للتسويق والتصدير، وورشة للسفن الحربية والأساطيل البحرية. والواقع أن الموحدين الذين انطلقوا من الأطلس الكبير بالمغرب الأقصى لتوحيد المغرب العربي هم الذين واصلوا حمل مشعل الإسلام في البحر الأبيض المتوسط الذي ظل العرب وحدهم سادته طوال أكثر من قرنين.

لقد استطاع الموحدون بجيشهم المجهز الباسل وبأسطولهم البحري العظيم أن يتمكنوا من تطهير سواحل تونس من الغزو النورماندي الصليبي واستردوا منهم صفاقس وسوسة والمهدية بعد أن ألحقوا الهزيمة بعسكرهم البري وأسطولهم البحري، وأن يواجهوا الأسبان

في معارك متعددة على أرض الأندلس ومحاربة الأساطيل العدوة بالبحر الأبيض المتوسط وساحل البرتغال.

وخضعت طنجة للمرينيين سنة 672هـ وبرز خلال هذه الفترة علماء أجلاء أمثال الرحالة العالمي المعروف ابن بطوطة الذي استغرقت رحلته خمسا وعشرين سنة جاب فيها آسيا وقسما من أوربا. ولما عاد إلى المغرب، وبطلب من السلطان أبي عنان المريني أَمْلى رحلته المشهورة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". وهو من أهم وأمتع التآليف المعروفة في هذا الميدان.

طنجة والاحتلال الأجنبي

كانت البرتغال أول دولة حاولت الاستيلاء على طنجة سنة 1415م ولكنها عجزت عن ذلك فتحولت إلى مدينتي القصر الكبير والدار البيضاء واستولت عليهما. وكان المحرض الأول والداعي لفكرة التوسع في المغرب الأمير إنريكي المعروف "بالملاح" الذي أعد جيشا لفتح طنجة التي وصلها برا عن طريق القصر الصغير يحميه الأسطول من جهة البحر حتى أشرف عليها يوم 13 سبتمبر 1437م وأنزل عساكره بضاحية مرشان، إلا أن صلة الجيش بالأسطول كانت مضطربة، عرضت المدفعية لكثير من الأخطار، إضافة إلى حصار المجاهدين القادمين من قبائل مجاورة لمدينة طنجة للغزاة وعددهم 6500 رجل. فلم يجد إنريكي مناصا من النزول عند رغبة المغاربة بتسليم مدينة سبتة مقابل تسريح أسرى الجيش البرتغالي، ولكنه نقض العهد.

وفي عام 1471م تمكنت البرتغال من احتلال مدينة طنجة هذه المرة بسبب ضعف السلطة المركزية في المغرب. وقد دام هذا الاحتلال قرنيين من الزمن عانت فيها المدينة من الحكم البرتغالي والإسباني ويلات شديدة جدا، حيث طمست معالم طنجة الإسلامية وأقيمت الكنائس بدل المساجد وطورد سكانها المسلمون.

وفي سنة 1662م انتقلت طنجة إلى أيدي الإنجليز بعد زواج تشارلز الثاني من الأميرة "كاترين" البرتغالية.فقد أضحت المدينة جزءًا من مهرها، فانسحب منها أفراد الجالية البرتغالية ونقلوا كل شيء فيها حتى النوافذ والأبواب، وقضى الإنجليز فيها على معالم الكثلكة وحولوها إلى حصن منيع. ولكنه لم ينعم بالراحة طيلة الاحتلال: 1662-1684م وذلك نتيجة المقاومة العنيفة التي أبداها أبناء القبائل المحيطة بطنجة. ويصادف هذا الاحتلال قيام الدولة العلوية بالمغرب. فقام بحصارها السلطان مولاي إسماعيل العلوي لمدة ست سنوات برا وبحرا، بحيث كانت جيوش السلطان الجرارة تزداد قوة وبطشا، وكان الإسبانيون والفرنسيون يؤيدون المغرب لتنافسهم مع إنجلترا، مما اضطر معه الإنجليز إلى الجلاء عن المدينة سنة: 1684م بعد أن نهبوها، وخربوها، واستغرقت مهمة التخريب عدة شهور وباشره خبراء في النسف. وعادت المدينة إلى حظيرة الوطن مرة أخرى، وسارعت الحكومة إلى إعادة الطابع الإسلامي إلى المدينة، ووزعت أراضيها على قواد الجيش وعاد إليها المغاربة، وعادت معهم الحياة المغربية التقليدية، وازدهرت فيها التجارة وانتعشت من جديد.

وصارت طنجة منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي عاصمة المغرب الدبلوماسية،

حيث أضحت معقل السفراء الأجانب ومقر نائب السلطان وذلك نظرا لقربها من أوربا وعلى مضيق تمر به سفن معظم الدول الأوربية، وهو ما عرضها لغارات بحرية من طرف بعض القوى الأوروبية وخصوصا الفرنسية والإنجليزية، نتيجة التنافس التجاري بينها. وكان أعنف هذه الغارات تلك التي قامت بها فرنسا سنة 1844م في عهد السلطان مولاي عبد الرحمن العلوي الذي كان يساعد الأمير عبد القادر الجزائري إثر احتلال بلاده سنة 1830م. وقد أظهرت إنجلترا استياءها من الموقف الفرنسي، فلم يجد الفرنسيون بدّاً من أن يجعلوا حدّاً لهجوماتهم على المغرب وعقد الصلح بين المغرب وفرنسا بمدينة طنجة.

وكانت محل اهتمام العالم عندما نزل بها إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني سنة 1905م وألقى بها خطابا ضد سياسة فرنسا في المغرب. وفي عام 1906م عقد مؤتمر دولي في مدينة الجزيرة الخضراء، وضع فيه ميثاق ينص على إقامة نظام خاص في طنجة. وبعد فرض الحماية على المغرب سنة 1912م وتقسيمه إلى ثلاث مناطق. اعتبرت مدينة طنجة منطقة دولية.

طنجة والحماية الاستعمارية على المغرب

إذا كانت الاتفاقات السرية والعلنية المتعلقة بالوضع الدولي للمغرب قد تضمنت الرغبة في إقامة نظام إداري خاص تتميز به طنجة عن بقية أجزاء المغرب، فإن الدول الثلاث المعنية بالموضوع وهي انجلترا وإسبانيا وفرنسا، لم تصل إلى اتفاق بشأن ذلك النظام الخاص إلا في 18 دجنبر 1923م. وظلت طنجة في إطار هذا الوضع الشاذ، مسرحا للمضاربات المالية، والدسائس الأجنبية ومقصدا لهواة المغامرات، كما لعبت دورا من أمجد الأدوار في تاريخها ذلك أنها بحكم اتصالها بالأجانب واتصال الأجانب بها، كانت أسرع مدن المغرب إلى الاستيقاظ واستطاعت أن تلمس ما يبيت لمستقبل البلاد، فنهضت لتنوير بقية القطر وعملت على إحباط الدسائس الاستعمارية، وكانت أهم مدينة في المغرب اتسع فيها نطاق الشركات والوكالات ونشأت فيها المطابع وصدرت الصحف بمختلف اللغات وكان يقصدها الكتاب والصحفيون والمراسلون فساعد ذلك كله على أن تتفتق الأذهان وتنشر فيها الوطنية. ويرى الدكتور عبد العزيز التمسماني خلوق المتخصص في تاريخ طنجة أن بعض الوثائق المغربية المحلية التي عثر عليها تحمل هموم الأهالي وتعكس مواقفهم الرافضة للنفوذ الأجنبي وقيمه وتقاليده، وتنطق بمظاهر الفساد التي كانت تدمي قلوبهم، وتجرح كرامتهم ومشاعرهم. إنها تعتبر صرخة صادرة من أعماق نفوس غيورة على الوطن، وهو حديث العهد بالاحتلال، ومرآة صادقة عن تجربتهم المريرة مع الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والجمعيات اليهودية المحلية. فتأسست جمعية التعاون الخيرية الإسلامية. ثم جمعيات الشبان المتعلمين. والحرص على الاحتفال بعيد المولد النبوي وإشاعة روح الوطنية.

ودخلت طنجة في منعطف حاسم بعد تقديم مطالب الشعب المغربي في سنة 1934م والتي نصت على إسقاط جوازات السفر بين مناطق المغرب الثلاث وتمكين المغاربة في السفر للخارج من الجوازات وترك الحرية للذهاب حيث شاؤوا. وكذلك السماح للأفراد

بإنشاء مدارس حرة. يضاف إلى هذا انتشار أفكار الحركة السلفية للإصلاح الديني والثقافي التي استهدفت تحرير البلاد والعقل معا باستعادة السيادة للوطن والطهارة للعقيدة الإسلامية. وهكذا نبعت حركة تعليمية إسلامية من أحضان المدينة، هدفها التصدي للنفوذ الثقافي الغربي ونشر الثقافة الإسلامية العربية الصحيحة، والاهتمام بتنقية فكر الشباب من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة، وتنوير العقول وتحريك النفوس، وإذكاء حماسها، وتفجير مشاعرها الدينية والوطنية.

هكذا أصبحت طنجة تضطلع بدور بارز في حظيرة الحركة الوطنية فصارت ملجأ للوطنيين بوصفها الجزء الوحيد من البلاد حيث يمكنهم استنشاق بعض الحرية في خضم موجة القمع ضدهم في المنطقتين الإسبانية والفرنسية.كما كانت زيارة الأمير شكيب أرسلان سنة 1930م حدثا وطنيا بارزا أثار قلق السلطات الاستعمارية، فقد كانت فرصة أمام هؤلاء الوطنيين والجمعيات للاحتكاك به والاستفادة من آرائه وتوجيهاته. وهكذا فقد توافد عليه عدد كبير سواء من أهل طنجة أو المدن المجاورة، وكانت هذه الاتصالات تتم في البيوت وحتى في بعض الدكاكين التي كانت بمثابة مراكز النشاط الوطني.

زيارة محمد الخامس لطنجة.. الحدث والدلالة

شكلت زيارة محمد الخامس لمدينة طنجة في 9 أبريل 1947م حدثا تاريخيا وسياسيا في تاريخ المغرب المعاصر، إذ أكدت هذه الزيارة على إصرار المغرب على الحفاظ على وحدته الترابية ورفضه للتقطيع الذي قام به الاستعمار لأجزاء الوطن الواحد بين مناطق في الشمال وفي الجنوب يحتلها المستعمر الإسباني ومنطقة يحتلها المستعمر الفرنسي ومنطقة طنجة التي وضعت تحت الحجر الدولي، كما أكدت هذه الزيارة على انتماء المغرب الإسلامي العربي وتضامنه مع الشعوب العربية التي وضعت لبنة وحدتها ضمن إطار منظمة الجامعة العربية ردا على مشروع الاتحاد الفرنسي الذي يرفضه المغرب. وإذا كان برنامج الرحلة وخط سيرها وكذا المراسيم والاستقبالات التي أقيمت لجلالته بطنجة تؤكد على تشبث المغاربة بسيادتهم وبرغبتهم في التحرر، فقد كان خطاب طنجة التاريخي الذي ألقاه جلالته يوم 10 أبريل 1947م في حدائق المندوبية السلطانية بحضور رجال الحكومة المغربية وسفراء الدول الأجنبية وسلطات الحماية والجماهير الغفيرة من المواطنين القادمين من جميع أنحاء المغرب، فضلا عن سكان طنجة. هذا الخطاب الذي عبر فيه تمسكه بحق بلده في استرجاع حريتها والانطلاق من أسر التبعية الأجنبية، وفي يوم الجمعة 11 أبريل توجه الملك للصلاة بالمسجد الأعظم في موكب رسمي حافل، وقد فاجأ رعيته الكريمة بمنة عظيمة فألقى خطبة الجمعة وأمّ الناس بنفسه.

وعلى الجملة كما يقول المرحوم علال الفاسي في كتابه الحركات الاستقلالية في المغرب العربي وعلى لسان المسيو جيريف المبعوث الخاص لجريدة (لومند) الباريسية: إن زيارة السلطان لطنجة تعتبر قطعاً وبدون أدنى نزاع نصرا مبنياً للوطنية المغربية وحركتها الاستقلالية. فثارت ثائرة الأوساط السياسية والعسكرية الفرنسية، غادر على إثرها المقيم العام المسيو إيريك لابون المغرب لي‌عين خلفه دون أن يوجه لجلالة السلطان حتى تحيته التقليدية التي تعود المقيمون بعثها لجلالته بعد مغادرتهم لمقر

وظيفتهم.

واستمرت طنجة تحت النظام الدولي إلى أن تمت مرحلة الانتقال باتفاق 5 يوليو 1956م بين الحكومة المغربية من ناحية وبين لجنة المراقبة الممثلة لكل من الولايات المتحدة وبلجيكا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا وهولندا والبرتغال. وقد اعترف في هذا الاتفاق بعودتها إلى السيادة المغربية، وذلك بعد ثلاث وثلاثين سنة من الوصاية الدولية.

مآثر ومعالم طنجة

تعتبر مدينة طنجة من المدن المغربية الغنية بالمآثر التي تحكي عن تاريخها العريق والحافل بالأمجاد. فرغم أنها تعرضت للتخريب من طرف البرتغال ثم الإنجليز من بعدهم، وانمحت بذلك آثار طنجة الإسلامية ولم يبق من معالمها الإسلامية ما يدل على انتمائها. وقد أدرك السلطان مولاي إسماعيل عقب الفتح الإسلامي الثاني أن طنجة في حاجة إلى أمرين اثنين لن تقوم لها قائمة بدونهما وهما: سور يحيط بها ويحميها من هجمات الأعداء. ومسجد يحصنها من الداخل ويعيد للمدينة تاريخها المفقود، أو يعيد المدينة بعد أن فقدت إلى تاريخها؛ فأعاد بناءها وسورها وبنى مساجدها وعقد للقائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي بذلك، فبنى القصبة كما بنى المسجد الأعظم بالمدينة، وأقام به الخطبة، والذي يعد معلمة من معالم طنجة. وقد حظي باهتمام كبير من طرف ملوك الدولة العلوية فحبسوا عليه واغنوا خزانته العلمية. ويتميز هذا المسجد من بين سائر مساجد المدينة بموقعه من مدخل المدينة من جهة الميناء ومن جهة الشاطئ وبالقرب من وسط المدينة العتيقة.

أما القصبة فهي من المآثر التاريخية التي ترتبط بحياة المدينة، ومن أهم الوحدات العمرانية، بُنيت في عهد السلطان مولاي إسماعيل فكانت مقر الحاكم وبيت المال، ومركزا لاتخاذ القرارات العسكرية. وعرفت في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن بناء دور الوكلاء وسفراء الدول الأجنبية وذلك سنة 1849م.

وتشكل القصبة اليوم جزءًا من المدينة العتيقة والتي تتباين مساكنها فيما بينها تباينا كبيرا من حيث الشكل والطراز المعماري المغربي الأصيل التقليدي، والشيء نفسه يلاحظ في بعض أحياء المدينة العتيقة. إلا أن هناك تعايشا وانسجاما في جهات أخرى من المدينة بين المعمار العربي الإسلامي والفن المعماري الأندلسي والفن المعماري الكولونيالي الفرنسي والإسباني.

لقد تغيرت القصبة اليوم بوظائفها وخصائصها، واختفت معالمها العريقة التي كانت تتميز بها. فقصر السلطان أصبح متحفا للآثار منذ سنة 1923م، وبيت المال غدا قاعة عرض للفنون التشكيلية، والمشور بازاراً. وثكنة المشاة مفتشية للآثار، واسطبل الحاكم وحدات سكنية. ولم يبق إلا المسجد ومئذنته المثمنة الأضلاع وسور القصبة الذي ينفتح على باقي أحياء المدينة بواسطة باب العصى وباب القصبة وعلى البحر من خلال باب البحر. حيث تعلو الأرض وتهبط وتتداخل الأزقة وتنتصب البوابات الحجرية القديمة والبيوت تتجاور بلون جدرانها الأبيض ونوافذها المطلية بالزرقة والخضرة: لون البحر والطبيعة التي جلب على حبهما الإنسان الطنجي. ويقبل السواح على زيارة مدينة طنجة ويفضل الزائر للمدينة رؤية الجناح القديم من المدينة، حيث الأزقة الضيقة والملتوية والتي

تنتشر فيها البازارات والمحلات التجارية التي تعرض بضاعتها المتنوعة ما بين المنتجة محليا ووطنيا والمستوردة من جبل طارق وسبتة ودول أوروبية قريبة كإسبانيا والبرتغال وفرنسا وبلجيكا وهولندا. إضافة إلى وجود المقاهي والمطاعم والفنادق من مختلف المستويات والمرافق السياحية الأخرى. كما تستأثر المدينة العتيقة باهتمام الأجانب الذين يفضلون الإقامة بطنجة لمدة سنوات حيث الهدوء والسكينة في بيوتات وقصور ذات الطابع المغربي الأصيل. فقد اختارها كثير من الفنانين والأدباء والمفكرين وشركات الأفلام لتصوير لقطات من أفلامها أو بكاملها، كما كتب عنها الكثير ووظف فضاؤها في كتابات إبداعية عربية وعالمية متنوعة. كما تستقبل طنجة مئات الألوف من مغاربة الداخل يأتونها وأولئك الذين يعبرونها ذهابا وغيابا من وإلى الديار الأوروبية حيث يعمل الآلاف من المغاربة.

ومن أهم المآثر كذلك هناك رأس المنار المشرف على مجمع البحرين وجبل الشرف المطل على المدينة وعلى البحر وضاحية مرشان المواجهة لبعض مدن الأندلس وجبالها، ورأس اسبارطيل المشرف على المحيط الأطلسي وفيه المنار البحري العظيم الذي بناه الملك محمد بن عبد الرحمن عام 1865م ومغارة هرقل ومسرح سرفانطس المغلق منذ سنوات والذي شيد سنة 1913م وقد لعب دورا ثقافيا مهماً في تاريخ طنجة الحديث، معلمة من معالم المدينة التي آلت إلى العدم!.

وهناك كذلك المدافع المنتصبة في بعض جهات المدينة والتي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر الميلادي فيها البرتغالي والإسباني والفرنسي والإنجليزي. والشاطئ الفسيح برماله الذهبية يغري القادمين إليه من كل أنحاء المغرب والعالم.

طنجة اليوم

أما المدينة الجديدة(الأوروبية) التي عملت الإدارة الدولية الاستعمارية على تخطيطها فتتميز بشبكة جيدة من الطرق وتخطيط جيد، بناؤها متميز وشوارعها واسعة، ومرافق حديثة، تتمركز فيها الإدارا ت والمحاكم والبنوك ومركز الولاية ووكالات الأسفار وشركات الخطوط الجوية. وتصطف المقاهي الحديثة يمنة ويسرة على جانبيها وهي تتنافس في خدماتها لجلب زبائنها. وتمتلئ العمارات الحديثة التي تضاعفت في السنوات الأخيرة، كما امتدت المباني شرق المدينة وغربها وجنوبها عبر حي المصلى وحي السواني وبني مكادة والإدريسية وساحة الثيران(سابقا) وبن ديبان والجيراري والشرف والعوامة وبئر الشفا نتيجة الهجرة المكثفة إلى المدينة والتي ازدهرت منذ السبعينات بصفة خاصة.

اشتهر بطنجة سوقان: الصغير والكبير ، فالصغير المنحدر إلى البحر عند المسجد الأعظم، وقد عرف ازدهارا كبيرا أيام الحماية الدولية ويمثل جزءا من المدينة العتيقة وتوجد به البازارات والمتاجر والمقاهي والمطاعم والفنادق الشعبية. وما زال يحظى بالمكانة نفسها التي اكتسبها مع تغيير في الخدمات، انه مركز المدينة السحري.

أما السوق الكبير فقد ظل يمثل سوق طنجة الرئيسي منذ نشأة المدينة إلى أواخر الخمسينات فكان يعرض فيه الفلاحون الوافدون على المدينة من كل النواحي المجاورة

بضاعتهم المتمثلة في الخضر والحبوب والفواكه والدجاج والبيض والزهور والرياحين والألبان ومشتقاتها وغير ذلك مما تنتجه الأرض، ويمثل نقطة تلاق بين مجالين: المجال الأوروبي والمجال العتيق. فضاء فسيح تكثر فيه الحركة والمتنفس الذي تفضي إليه بعض دروب المدينة القديمة عبر أبواب أو ممرات كي يعبروا إلى المدينة الجديدة التي شيدها الأوروبيون. تحيط به مبانٍ مهمة في مقدمتها دار المندوبية بحديقتها الواسعة ومقر الهيئة الدبلوماسية الألمانية ومسجد سيدي بوعبيد المتميز بمئذنته العالية والمزخرفة بالزليج المهيمنة على منظر الساحة العام. وقد بني هذا المسجد من طرف أهل سوس سنة 1916م. إنها ذاكرة تاريخية مهمة لما ارتبط بها من أحداث وطنية وثقافية وسياسية قبل الاستقلال وبعده.

وما زال أهل طنجة يتذكرون بافتخار واعتزاز المؤتمر الذي انعقد في مدينتهم سنة 1958م بقصر مرشان تحت رئاسة المرحوم علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال وزعيم حزب الدستور الجديد التونسي وزعيم جبهة التحرير الوطني الجزائري والساعي لتوحيد المغرب العربي، وكان ذلك حدثا عظيما لم تعرف إفريقيا الشمالية سابقا لـه قبل استقلال تونس والمغرب. ومن طنجة عرف العالم نبأ نجاح مؤتمر لوحدة المغرب العربي.

طنجة اليوم ولاية تضم عمالة طنجة أصيلة، وعشر دوائر إدارية وسبعاً وثمانين جماعة قروية. تمثل مساحتها 1195 كلم مربع، وكثافة سكانية تمثل 525,5 في كلم مربع، يمثل السكان النشيطون 194992 فرداً. عدد المناطق الصناعية ثلاثة، وعدد الفنادق 122 ومعهد عالي للسياحة ومدرسة الملك فهد للترجمة الذائع الصيت ونواة جامعية حديثة وحي جامعي، ومنطقة حرة أنشئت سنة 1961م في ميناء طنجة، الذي يعرف حركة نقل البضائع والمسافرين ووظائف وأنشطة أساسية مكونة ضمن اقتصاديات المدينة. إن الدخول إلى طنجة يتم عن طريق البحر أو الجو أو البر أو باستخدام السكك الحديدية.

هذه هي طنجة، مدينة سحر عربية، مدينة صنعت من تاريخ موغل في القدم ومن غموض ماثل على الدوام. مدينة أغرت الإنجليز والبرتغال والإسبان والفرنسيين وكل أجناس الدنيا. وسكانها كما وصفهم المرحوم كنون ذوو أخلاق عالية، ومعاشرة حسنة وذكاء وألمعية، ولهم تمرس باللغات الأجنبية العديدة، ومن ثم كانت طنجة منطقة مختارة للتعايش السلمي والودي بين مختلف الأجناس لروح التفاهم التي تسود سكانها كافة.

****

الهوامش والمراجع

*) باحث وأكاديمي من المغرب.

1- طنجة عبر التاريخ، محمد بولعيش، 1995م.
2- طنجة بوابة إفريقيا، عزيزة محمد علي بدر، 1997م.
3- أعداد مختلفة من مجلة دار النيابة.
4- مجلة الباحث، عدد: 3/1974م.

أعداد مختلفة من صحيفة "العلم" وصحيفة "الاتحاد الاشتراكي".